الدرس الأوَّل

توجيهُ القراءات عند ابن جريرٍ رحمه الله

- منْ سُورة الإسراء -

هذا هو الدَّرسُ الأوَّلُ في (توجيه القراءات عند المفسِّرين)، ونستهلُّه بشيخ المفسِّرين أبي جعفرٍ بن جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ)، وبما أنَّا بدأنا توجيه النِّصف الأوَّل من القرآن الكريم في المحاضرات، فسنجعلُ التَّطبيق قاصرًا على النِّصف الثَّاني، وسنختارُ في هذا الدَّرسِ – على سبيلِ التَّمثيلِ – ثلاثة مواضعَ من سورة الإسراءِ، وتوجيه الطَّبريِّ رحمه الله لها من كتابه (جامع البيان)، والله الموفق.

الموضع الأوَّل: قوله تعالى: ﴿**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**﴾[الإسراء:7].

– محلُّ الخلاف هو كلمة (**لِيَسُوءُوا**).

– فقد قرأها ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَخَلَفٌ وَأَبُو بَكْرٍ بِالْيَاءِ وَنَصْبِ الْهَمْزَةِ (لِيَسُوءَ) عَلَى لَفْظِ الْوَاحِدِ. وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ بِالنُّونِ وَنَصْبِ الْهَمْزَةِ (لِنَسُوءَ) عَلَى لَفْظِ الْجَمْعِ لِلْمُتَكَلِّمِينَ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْيَاءِ وَضَمِّ الْهَمْزَةِ، وَبَعْدَهَا وَاوُ الْجَمْعِ (لِيَسُوءُوا)[1].

– قال ابنُ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ) في توجيه هذه القراءات: «وقد اختلف القراء في قراءة قوله: (**لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ**). فقرأ ذلك عامَّة قرّاء أهل المدينة والبصرة (**لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ**) بمعنى: "ليسوء العباد أولو البأس الشديد الذين يبعثهم الله عليكم وجوهكم"، واستشهد قارئو ذلك لصحة قراءتهم كذلك بقوله: (وَلِيَدْخُلُوا المَسْجِدَ) وقالوا: ذلك خبر عن الجميع فكذلك الواجب أن يكون قوله (لِيَسُوءُوا).

[1] يُنظر: ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر، ج2، ص306.

وقرأ ذلك عامَّة قرّاء الكوفة: (**لِيَسُوءَ وُجُوهَكُمْ**) على التوحيد وبالياء، وقد يحتمل ذلك وجهين من التأويل: أحدهما ما قد ذكرت، والآخر منهما: ليسوء الله وجوهكم، فمن وجَّه تأويل ذلك إلى ليسوء مجيء الوعد وجوهَكم، جعل جواب قوله: (**فَإِذَا**) محذوفا، وقد استغني بما ظهر عنه، وذلك المحذوف "جاء"، فيكون الكلام تأويله: "فإذا جاء وعد الآخرة ليسوء وجوهكم جاء".

ومن وجَّه تأويله إلى: "ليسوءَ اللهُ وجوهَكم"، كان أيضا في الكلام محذوف، قد استغني هنا عنه بما قد ظهر منه، غير أن ذلك المحذوف سوى "جاء"، فيكون معنى الكلام حينئذ: "فإذا جاء وعد الآخرة، بعثناهم؛ ليسوء الله وجوهكم"، فيكون المضمر (بعثناهم)، وذلك جواب إذا حينئذ.

وقرأ ذلك بعض أهل العربية من الكوفيين: (لِنَسُوءَ وُجُوهَكُمْ) على وجه الخبر من الله تبارك وتعالى اسمه عن نفسه»[1].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾[الإسراء:16].

- محلُّ الخلاف هو كلمة (أَمَرْنَا).
- فقد قرأها يَعْقُوب (آمَرْنَا) بِمد الْهمزَة. وَالْبَاقُونَ بقصرها (أَمَرْنَا)[2].
- ولكنَّ ابنَ جريرٍ رحمه الله (ت:310هـ) لما جاءَ إلى توجيهها؛ ذكر فيها ثلاث قراءاتٍ هي: أَمرْنَا، وأَمَّرْنَا، وآمرْنَا. قال رحمه الله: اختلف القرّاء في قراءة قوله (أَمَرْنَا مُتْرَفِيها).

فقرأت ذلك عامة قرّاء الحجاز والعراق (أَمَرْنا) بقصر الألف وغير مدها وتخفيف الميم وفتحها. وإذا قرئ ذلك كذلك، فإن الأغلب من تأويله: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها بمعصيتهم الله، وخلافهم أمره، كذلك تأوّله كثير ممن قرأه كذلك. [...] عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس ﷺ: (أَمَرْنا مُتْرَفِيها) قال: بطاعة الله، فعصوا.

[1] ابن جرير، جامع البيان، ج17، ص371-372. ولم يرجح الطبري رحمه الله في هذا الموضع بين القراءات.

[2] يُنظر: ابن الجزري، تحبير التيسير في القراءات العشر، ص436.

وقرأ ذلك أبو عثمان النَّهديُّ (أمَّرْنا) بتشديد الميم، بمعنى الإمارة. [...] عن ابن عباس، قوله: (أمَّرْنا مُترَفِيها) يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِميهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا). [...] وعن أبي العالية، قال: (أمَّرْنا) مثقلة: جعلنا عليها مترفيها: مستكبريها.

وذُكر عن الحسن البصري أنه قرأ ذلك (آمَرْنا) بمدّ الألف من أمرنا، بمعنى: أكثرنا فسقتها. وقد وجَّه تأويل هذا الحرف إلى هذا التأويل جماعة من أهل التأويل. عن ابن عباس، قوله (وَإِذَا أَرَدْنا أنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً آمَرْنا مُترَفِيها فَفَسَقُوا فِيها) يقول: أكثرنا عددهم. وعن عكرمة قوله (آمَرْنا مُتْرَفِيها) قال: أكثرناهم[1].

قال ابنُ جريرٍ رحمه الله: «وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأ (أَمَرْنا مُتْرَفِيها) بقصر الألف من (أمرنا) وتخفيف الميم منها، لإجماع الحجة من القرّاء على تصويبها دون غيرها. وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة، فأولى التأويلات به تأويل من تأوّله: أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، فحقّ عليهم القول، لأن الأغلب من معنى أمرنا: الأمر، الذي هو خلاف النهي دون غيره، وتوجيه معاني كلام الله جلّ ثناؤه إلى الأشهر الأعرف من معانيه، أولى ما وجد إليه سبيل من غيره»[2].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿**كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾[الإسراء:38].

– محلُّ الخلاف هو كلمة (سَيِّئُهُ).

– فقد قرأها الْكُوفِيُّونَ، وَابْنُ عَامِرٍ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَالْهَاءِ عَلَى الْإِضَافَةِ وَالتَّذْكِيرِ (سيِّئُهُ). وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ، وَنَصْبِ تَاءِ التَّأْنِيثِ مَعَ التَّنْوِينِ عَلَى التَّوْحِيدِ (سَيِّئَةً)[3].

– وقد وجَّهها ابنُ جريرٍ رحمه الله بقوله: «وقوله: (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) فإن القرّاء اختلفت فيه.

---

[1] يُنظر: ابن جرير، جامع البيان، ج17، ص403-405.

[2] المصدر نفسه، ج17، ص406.

[3] يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج2، ص307.

فقرأه بعض قرّاء المدينة وعامة قرّاء الكوفة (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) على الإضافة بمعنى: كل هذا الذي ذكرنا من هذه الأمور التي عددنا من مبتدأ قولنا (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ) .... إلى قولنا (وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا) (كانَ سَيِّئُهُ) يقول: سيء ما عددنا عليك عند ربك مكروها.

وقال قارئو هذه القراءة: إنما قيل (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ) بالإضافة، لأن فيما عددنا من قوله (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ) أمورا، هي أمر بالجميل، كقوله (وَبالوَالِدَيْنِ إِحْسانا) وقوله (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) وما أشبه ذلك، قالوا: فليس كلّ ما فيه نهيا عن سيئة، بل فيه نهيٌ عن سيئة، وأمرٌ بحسناتٍ، فلذلك قرأنا (سَيِّئُهُ).

وقرأ عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة وبعض قرّاء الكوفة (كُلُّ ذلكَ كانَ سَيِّئَةً) وقالوا: إنما عنى بذلك: كلّ ما عددنا من قولنا (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ) ولم يدخل فيه ما قبل ذلك. قالوا: وكل ما عددنا من ذلك الموضع إلى هذا الموضع سيئة لا حسنة فيه، فالصواب قراءته بالتنوين. ومن قرأ هذه القراءة، فإنه ينبغي أن يكون من نيته أن يكون المكروه مقدما على السيئة، وأن يكون معنى الكلام عنده: كلّ ذلك كان مكروها سيئه؛ لأنه إن جعل قوله: مكروها نعدّ السيئة من نعت السيئة، لزمه أن تكون القراءة: كلّ ذلك كان سيئة عند ربك مكروهة، وذلك خلاف ما في مصاحف المسلمين.

وأولى القراءتين عندي في ذلك بالصواب قراءة من قرأ (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ) على إضافة السيئ إلى الهاء، بمعنى: كلّ ذلك الذي عددنا من (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ.... كانَ سَيِّئُهُ) لأن في ذلك أمورا منهيا عنها، وأمورا مأمورا بها، وابتداء الوصية والعهد من ذلك الموضع دون قوله (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ) إنما هو عطف على ما تقدّم من قوله (وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ) فإذا كان ذلك كذلك، فقراءته بإضافة السيء إلى الهاء أولى وأحقّ من قراءته سيئةً بالتنوين، بمعنى السيئة الواحدة.

فتأويل الكلام إذن: كلُّ هذا الذي ذكرنا لك من الأمور التي عددناها عليك؛ كان سيئة مكروها عند ربك يا محمد، يكرهه وينهى عنه ولا يرضاه، فاتَّقِ مواقعتَه والعملَ به»[1].

[1] ابن جرير، جامع البيان، ج17، ص450-451.